تفريغ مادة مرئية بعنوان

بما ميز الله العبد المسلم؟

١٠/ ٨/ ٢٠١٧ - ١٨ ذي القعدة ١٤٣٨

مدة المادة: ١٩:٢٧

أبو قتادة الفلسطيني

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله:

أخ يسأل -مع الاعتذار أنه سأل هذا السؤال قبل عامين كما يقول، ووعدته بعد رمضان، فمضى رمضان ثم رمضان- يقول الأخ: إذا سئل أحدهم بم ميز الله العبد المسلم عن سائر الكائنات الحية؟؟ وكان الجواب: إن الله ميزه عن الكفار بالعقل والاستخلاف في الأرض والأمانة.

أما العقل، فلقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بمفهوم المخالفة: إذا كان الكافر غير عاقل، فالمسلم عاقل، فالعاقل من يميز بين الحق والباطل.

وأما الاستخلاف، فدليله: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. فاختاره الله ﷻ ليكون خليفة دون سائر المخلوقات، حتى الملائكة منهم.

أما الأمانة، لما جاء في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾. في الآية دليل على أن السموات والأرض والجبال تعقل وتميز بين النافع والضار لها.

ربما يشترك العبد المسلم مع غيره في إحدى الميزات المنفردة، أما اجتماع الثلاث معا هو علامة العبد المسلم وحده.

فلو تدبرها الإنسان لعلم عظم قدره بما اصطفاه الله، ولما تجرئ على عصيانه، بل لكان محياه ومماته كله لله.

السؤال: ما مدى صحة هذا الطرح؟ هل هناك مميزات أخرى غابت، وهل لنا أن ننشر هذا بين الإخوة كما هو؟؟.

هذا السؤال طويل، ولو قال قائل: نحتاج للجواب عليه إلى مصنف كامل، لصدق.

السبب في هذا: أن هذه الألفاظ التي ذكرها الأخ السائل ألفاظ مشتركة. ولنذكر أمثلة على هذا..

هل الكافر غير عاقل، وهل المسلم هو العاقل دون بقية البشر؟

الجواب على هذا: كلمة العقل هنا مشتركة، العقل الذي به يتم إدراك المسموع وإدراك المبصر، والتفكر فيما يعرض عليه من علوم.. فهذا العقل موجود في الإنسان، إلا من سلبه الله ﷻ منه وهو المجنون المعتوه. وهذا هو أساس التكليف وبقاء التكليف عليه ناشئ من وجود هذا العقل.

وأما العقل الذي يتم به المدح في الآية كما ذكرت ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهذا عقل خاص غير العقل الأول.

فمن هنا قلت: هذا لفظ مشترك، يطلق على أمرين.. قد يجتمعان في شيء، ولكن لابد من وجود الاختلاف بينهما في جوانب متعددة.

العقل الذي به يتميز الإنسان وهو مناط التكليف، هذا قاسم مشترك في البشر جميعا، إلا من رفع الله ﷻ عنه التكليف بكونه مجنونا، وأما أن يبقى التكليف عليه في الخطاب خطاب الوحي بوجوب التوحيد ومتابعة الرسول ﷺ، والفهم عن الله فيما يطلب الله ﷻ منه.. فهذا لا يختص به المسلم دون الكافر.

وقبل كل شيء.. أنا أكرر كثيرًا: بأن كلمة "العقل" باعتباره مدحا لم يرد في الكتاب والسنة، لأن العقل آلة.. أي: آلة إدراك وليست معرفة. وهذا هو الفرق بين أهل الإسلام، وأهل اليونان ومن تبعهم.

فالفلاسفة اليونانيون يقولون: بأن العقل يملك المعرفة بنفسه، وهو مصدر العلوم.. وأما أهل الإسلام فلا يقولون هذا.

والدليل أن القرآن لم يذكر كلمة "العقل" قط، وإنما ذكر الفعل منها "يعقلون"، بمعنى: أنهم إذا خوطبوا فهموا، وإذا مدحوا في هذا فذاك حين يفهمون هذا الخطاب، لذلك قال: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ قدم ربنا هنا السماع، ذلك أن العقل لا ينتج المعرفة، السماع هو الذي يتلقى به المرء المعرفة.

المعرفة تأتي من خارج الإنسان.. «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» فالمعرفة تأتي من الخارج. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ثم قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ المعرفة أتته من الخارج.

أما الفلاسفة اليونانيون فيقولون: العقل ينتج المعارف.. ومن هنا نشأ ما يسمى "الفلاسفة المثاليين" لأنهم يقولون: أن المعرفة من داخل الإنسان.

أما أهل الإسلام فيقولون: المعرفة تاتي بخطاب الوحي، وتأتي بالتمييز، وتأتي بالسماع.. ثم بعد ذلك، هذه المعرفة التي أتته عن طريق الحواس تدخل العقل فيركبها و ينشأ منها بعد ذلك معارف مركبة؛ وإنما أساس المعرفة هي التي تأتي إليه من الخارج.

ومن هنا، أهل العلم يقولون: أولًا ينشأ الإنسان على المادة لأنه بصير يدرك الأشياء، ثم بعد ذلك هذه الأشياء ترتقي إلى المعاني فتصل إلى عالم الحكمة وهكذا.. مثلا: يأتي المرء بالكتاب، فيدخل إلى عقله، فينفعل به و يصدقه، ثم بعد ذلك تنشأ لديه معارف من خلال ما أتت إليه من هذه المعارف الخارجية، فتنشأ الحكمة.

إذًا: العقل الذي هو مناط التكليف يشترك فيه البشر كلهم، ولولا وجود هذا العقل الذي به يتم إدراك الخطاب الموجه إليه لما حصل التكليف أصلا، لأن الإنسان من غير إدراك يسقط عنه التكليف.. كيف يخاطب المرء ثم يكلف وهو لا يعرف الخطاب ولم يدرك المراد به؟؟!!!

أما العقل الممدوح.. ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ فالمقصود به هنا "العقل ذو النهى"، العقل سمي "ذا النهى"، والنهى هو: العقل.

لماذا هنا العقل ممدوح؟ لأنه خرج من حيز الإدراك إلى حيز الإرادة

فالعقل هو الذي يخاطب به الإنسان من أجل الإدراك.. لكن هناك عقل آخر يرتبط باسم العقل لغة، وهو: بأن يكون هذا العقل مانعًا للمرء عن الخطأ، وهذا يكون مقابله: الجهل.

وإلى يومنا هذا ما زال يستخدم "الجهل" بهذا المعنى في لغة العوام، مثلا: إذا أراد أحد أن يذم أحدا لايمتثل للصواب الذي يخاطب به، ولا ينتهي عن الخطأ الذي ينهى عنه، يقال: رجل جاهل، أو فتى جاهل.. هذا جاهل. ولا يقصدون به عدم المعرفة، ولكن يقصدون به عدم التقيد بهذه المعرفة إن كانت أمرًا ونهيًا.

ولذلك، العقل من الربط، ويسمى العقال، فالأصل: العقل هو الربط، ولذلك تسمى المرأة عاقلة أو عقيلة فلان، لأنها محبوسة عليه.. فتمدح هذه المرأة فيقال: " عقيلة فلان " أي: محبوسة عليه وليست لكل أحد.

وتسمى الدية: العاقلة، لماذا؟ لأنهم كانوا قديما إذا جاؤوا بإبل الدية ربطوها بباب بيت القتيل، فسميت عاقلة لأنها عقلت، أي: ربطت.. وعقل الشيء أي: ربطه.

فالعقل في مرتبته الثانية -وهي المطلوبة بالنسبة للبشر- هو أن يمتثل المرء ما وجه إليه من خطاب... أولا يوجه إليه الخطاب فيعقله، ثم بعد أن يعقله، أي: يفهم مراد المخاطب، يتوجه إلى الامتثال.

وهذا العقل يربط المرء من السفاهة.. وقد أكثر القرآن من وصف خصومه بالسفهاء.. ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.. ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.. هؤلاء خوطبوا فأدركوا المراد، ثم خالفوه فكانوا سفهاء.

إذًا: اللفظ العقلي لفظ مشترك كما نرى.. يطلق على أساس التكليف والذي يتم به إدراك الخطاب، ثم يأتي إلى الوصف اللغوي للعقل، وهو أن يربط المرء عن اقتراف ما نهي عنه، وإتيان ما أمر به. فهذا هو العقل.

ولذلك قال القرآن: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أولًا السماع، ثم ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ هنا العقل المدحي: الذي به يتم وصف من امتثل الأمر فانتهى عن مخالفته، وكذلك من ابتعد عن النهي فأتى أمر الله ﷻ بالانتهاء والازدجار.. فهذا هو الجواب عن موضوع العقل.

أما الموضوع الثاني وهو: الاستخلاف.. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. لا أدري ماذا يريد منها... إنما يقول: اختار آدم ليكون خليفة دون سائر المخلوقات حتى الملائكة.. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾..

اختلف أهل العلم فيها:

الجمهور على أنه يخلف بعضهم بعضا، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.. يعني: يموت الآباء فيرث الأبناء، وهكذا.. هذا قول.

وقول آخر: أنه خليفة لأمم قد سبقت في عمران هذه الأرض وهم الجن.

وقال بعضهم –وهو قول مشتهر بين العوام، ويردده بعض أهل العلم– قال: إن الإنسان خليفة الله في الأرض، وهذا القول قال به بعض أهل العلم، ونهى عنه كثير من أهل العلم.

والمقصود هنا من الآية ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعني: هذا خطاب رباني للملائكة بهذا الأمر: أن البشر سيخلف بعضهم بعضا، والملائكة لم تعترض، ولكنها تساءلت عن حكمة هذا الأمر لأنها لم تدرك حكمة هذا الأمر، وأنا قد شرحت هذا مطولا في تفسير سورة البقرة، فليرجع إليه.

لكن هل هذا دليل على أن السموات والأرض و الجبال تعقل و تميز؟ الجواب: نعم.. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فهي قائمة بأمر العبودية على وجه التسخير، وعلى وجه الأمر القدري الكوني، بمعنى: أنها ليست مخيرة بين المعصية وبين الطاعة، ولا بين الغفلة وبين التذكر... هي قائمة على أمر الله عز وجل... تمتثل أمر الله، كما قال: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ فالحجارة تهبط من خشية الله.. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ هذا احتمال موجود ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾..فالحجارة تخشع، والجبال تخشع وتتصدع من أمر الله وثقل الأمر الموجه إليها.

لذلك، لا أدري ما هو السؤال، ولكن بلا شك أن السموات والأرض والجبال تعقل عقلًا خاصًا بها.

وهنا رجعنا إلى كلمة "العقل" يعني: ماذا تعقل؟ يعني: إذا خوطبت بأمر الله استجابت، فهذا هو الجانب الذي فيها. ولكن هل هذا العقل هو الذي في الإنسان؟ بلا شك أنه هو ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

إذًا: نحن علمنا أن لهم قدر خاص بهم لا نعرفه.. نحن عقولنا ومعارفنا وعلومنا محدودة، وهذه الحجارة التي حولنا، وهذه الجبال التي حولنا، وهذه السموات التي فوقنا، وهذه الأنهار التي تجري.. نحن لا نعرف كيفية تمييزها.. لا نراها إلا على حالة واحدة من خلق الله لها: المياه نرى فيها الميوعة، والجبال نرى فيها الثبات، والسماوات نرى فيها الثبات، والأنهار نرى فيها الجريان.. أما كيفية عبوديتها لله فنحن نتيقن بخطاب الله لنا – من قبل الصادق المصدوق– أنها تعبد الله ﷻ، وأنها تسبح الله ﷻ، وأنها تخشى الله ﷻ.. هذا هو المطلوب أن نفهمه، أما كيفية عقلها لهذا الأمر، وكيفية إدراكها للخطاب فهذا لا نعرفه.

الدواب التي عندنا لا نعرف كيفية إدراكها.. الداوب نعلم أنها تحس، وأنها تحب و تبغض.. في ذلك أدلة كثيرة.

والحجارة سبحت بيد النبي ﷺ... الجمل شكى للنبي سوء صنيع صاحبه به.. لكن كيف يقع هذا؟ يعني: لو قال قائل: كيف شكى هذا الجمل للنبي ﷺ؟؟ نحن لا ندري... «**أحد جبل يحبنا ونحبه**» كيفية وقوع ذلك لا ندري، الكيفية لا نعرفها، لكن نوقن بوجود هذا القدر ولا نزيد عليه.

في آخر الكلام يقول الأخ: فلو تدبرها الإنسان لعلم عظم قدره بما اصطفاه به.

بلا شك أن الله كرم آدم، وأسجد له الملائكة، وسخر لآدم ما في السموات وما في الأرض، لعظم قدر هذا المخلوق الصغير الذي هو مجرد ذرة صغيرة في هذا الكون الكبير، ولكن الله خلق كل شيء مسخرًا لهذا الإنسان.. بلا شك أن الإنسان هو المكرم من قبل الله ﷻ، وهو أكرم خلق الله.

واختلفوا من أعظم كرامة عند الله؟؟ الملائكة أم البشر؟ اختلفوا في هذا، فكثير من أهل العلم المشتهر عنهم بأن الإنسان أعظم من الملائكة، وذهب بعض أهل العلم –ومنهم ابن حزم– على أن الملائكة عنده في هذه

الآية من سورة الإسراء: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ بعض أهل العلم قال: إنه فضلهم على جميع خلقه حتى الملائكة، ابن حزم قال: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٖ﴾ فبقي القليل، من هم؟ قال: الملائكة... وبعض أهل العلم فصل فقال: من جهة الخلقة أصل الخلق الملائكة خير، أما من جهة ما يحصل للعبد الصالح من الطاعات مع وجود التكليف ومنازعة الإرادة التي هي إرادة الشر و نوازع الشر بوجود إبليس الناهي له عن الطاعة فيكون الإنسان أفضل.

فأصل الخلقة.. يعني: هذا خلق من نور، وهذا خلق من تراب فأصل الخلقة الملائكة أفضل، أما بعد بلوغ مراتب التعبد والامتثال يكون الإنسان أفضل من الملائكة. وهذا بعض تفصيل أهل العلم في ذلك.

ولكن ولا شك أن الإنسان خير من السموات ومن الأرض مع الاختلاف في الملائكة.

أرجو أن أكون قد بينت هذا بيانًا شافيًا، والحمد لله رب العالمين.

تفريغ العبد الفقير لرحمة ربه: أبي طالب الديري